كتاب الشباب

بطل دون أن يدري
فدائي في هوليود



مجموعة قصص

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

- بطل دون أن يدري
- فدائي في هوليوود

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

فدائي في هوليود، بطل دون أن يدري - الرياض

٤٢ ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٢-٤-٠-٤٠-٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية أ- العنوان

ديوي ٨١٣،٠١٩٥٣١ ٢٢/١٨٢٢

رقم الإيداع: ٢٢/١٨٢٢ ردمك: ٢-٤-٠-٤٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



بـطـل دون أن يـدري

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

هذه صـفـحـةٌ من تاريخِ المغـربِ الوطني المُعاصرِ، تحكي قصةَ رجلٍ بسيطٍ أحبط مؤامرةً استعماريةً خبيثةً كانت – لو وقعت – ستُغيِّرُ مجرى الأحـداثِ في مرحلةِ بدايةِ الاستقلالِ الدقيقةِ. أحبطها دون أن يدري.

حَكى لي صَديقٌ هذه القصةَ الغريبةَ والواقعيَّةَ، ونحنُ في طَريقنَا بين (أصيلةَ) و(الرباطِ) . قَالَ إِنَّهُ سمِعَها من مصدرِها الأصلي .

كَان يركبُ إلى جَانبي، في سيارتي، وقد تَجاوزْنَا قَريَةَ (سوقِ الأربعاءِ) التي هي منتَصَفُ الطَّريقِ، وأشْرَفْنَا على قَريةِ (علاَّلَ التَّازي)، وقَدْ تَوقَّفْنَا عن الحديثِ .

ولاحَتْ لنَا قَنْطَرَة (وَادِ سَبْو)، فَلَمعَتْ عَينَا صَديقي، كمَا يحدثُ له حين يَخْطُرُ ببالهِ موضوعٌ هَامٌّ، وفركَ يَدَيْهِ وقَالَ :

« عندي لكَ قصَّةٌ ممتَازَةٌ . . . قصةٌ عَظيمَةٌ، وقَعَتْ بعضُ أحداثِهَا في هذهِ المنطَقَةِ . بَلْ وعلى هذا الجسْرِ بالذَّاتِ . . . أنَا متأكِّدٌ من أنَّكَ ستَكتُبها حين أحكيها لك .

هذه القصَّةُ وقَعَتْ بعدَ الاستقلالِ مباشرةً، وعودَةِ ملكِ المغرب، سيدي محمدٍ الخامس مِن مَنْفَاهُ بقليلٍ . حكاها لي ابنُ بطلِ القصَّةِ نَفْسُه .

« كنتُ، ذاتَ يومٍ، واقفًا على بَابِ محطَّةِ الحافلاتِ في

(أصـيلة)، أنتظرُ المحصِّلَ لشـراء تَـذْكِـرَةٍ إلى (الرِّباط) . ورآني شَـابٌّ لا أعـرفُـهُ يركـبُ سـيـارةً، فـقـصَـدَني وأوقَفَ سـيَّـارَتَهُ، وسألَني عن وجْهَتي. فلمَّا عرَفَ أنِّي ذاهبٌ إلى (الرباط)، فتحَ البـابَ، وقَـالَ لي إنَّهُ هُو الآخـر ذَاهـبٌ إلى هناك، وأنه سـيـكُونُ سَعيداً لو أكرمتُهُ بمُرافَقَته.

ولما كـانَـتْ زَوجتُـهُ وطفـلاَهُ مَعَهُ حـاولتُ الاعـتـذارَ، ولكنَّهُ أصَرَّ على رُكُوبي معهُمْ، كما أصَرَّتْ زوجتُهُ. ولمْ أملكْ إلا أن أركَبَ، شاكراً لُطْفَ الأسْرَةِ الشَّابة.

وَمَدَدْتُ يَدي مُصافحاً الزَّوْجَ معتَذراً :

– اسمحْ لي، لم أتَذكَّر اسمك، ولاَ أيْنَ التَقَيْنَا.

فضَحكَ الشَّابُّ، وقَالَ :

– كَيفَ لاَ تَذكُرُني، وأنَا ابن « حَارَتك » ؟!

والتَفَتُّ إلَيْه لأمْعنَ النَّظَرَ في وَجْهه، وَلَكنَّ أسفَلَ وَجهه كانَ مُغَطًّى بلِحيةٍ، فَلَم أسْتَطعْ تَخَيُّلَهُ كَطفْلٍ صَغير يَلْعَبُ في دُرُوبنا.

وكَانَ لَطيفاً خَفيفَ الظِّلِّ، فَلَمْ يَمتَحِنِّي بما يمتَحنُني به

بعضُ الثقَلاءِ الذينَ رأيْتُهُمْ مرَّةً واحِدةً في حَياتي فَيقولُ: «حَاوِلْ أن تَتَذكَّرَا» أو «كيف نسيتَني بهذه السُّرعَةِ؟!»

- أنَا وَلْدُ (ميمون) الطَّباخِ الذي كَانَ مع الكُولُونيل (كاسْطيَانُو).

وبمجرَّدِ ذكرِ (ميمُون والكُولُونيلْ كَاسْطيَانُو) فتح اللَّهُ عَلَيَّ، وانْفَتَحَتْ لي نَافذةُ النَّجَاة في ظَلاَم المَجْهُولِ والحَرجِ، فضَرَبْتُ جَبهَتي بيَدي، ومدَدْتُ إليه اليَدَ الأُخرى مُصافحًا بحرارةِ الجَارِ لجَارِه، هذه المرَّةَ، وقلتُ:

- كيفَ أنسى! الآن تذكَّرتُك، وأنتَ تركبُ حصان القصَبِ، وتجري خلف بَنَاتِ الحومَةِ بالفأرةِ الميتة!

وضَحِكَتْ زوجَتُه الشابَّةُ من الخَلْفِ، وقَفزَ الطفلانِ فوق الكرسي طرَبًا لمشْهدِ أبيهما وهُوَ في سنِّهمَا.

وانخَرطْنَا في أحاديث أيام الصِّبَا وذكريَاته الجميلة...

وانطوَتْ الطَّريقُ أمامنا، فلم نشعُر إلاَّ ونحن نخترقُ قريةَ (عَلاَّلَ التَّازي) التي اجتَزْنَاهَا الآنَ، وهنَاكَ لاحظْتُ تَغَيُّراً مُفَاجئاً على وجْهِ صَاحبي، وعلى تَصَرُّفَاته. فقد كَفَّ عن

الكلامِ والضَّحكِ، وبَانَتْ علاَمَاتُ الجدِّ والقَلَق عَلى مَلامِحِه...

ولاحظْتُ أنَّ زوجـتَـه الشـابةَ، هِي الأخْـرَى، كـفَّتْ عنِ الحديثِ، وضَمَّتْ طفلَها الأصْغَرَ إليْهَا.

وأقـتـرَبْنَا منْ هذه القـنطرة، فَلاَحْظتُ أنَّ صَاحبي يُمسِكُ بعَـجَلَةِ القـيَـادَةِ بقُـوةٍ حـتى إنَّ أصـابعَـهُ ابيـضَّتْ منَ الضَّـغط، وارتَعَشَتْ شَـفَـتَاهُ من العـصَبيَّـةِ، وانـتـفضَ عِـرْقٌ بجـانـب عَـيْنِه اليُـمْنَى. وأخَـذت السَّـيَّـارةُ، رَغْمَ أنَّـهـا لَمْ تَكُنْ مُـسـرْعَـةً، تَزيغُ ذَاتَ اليَمينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ داخلَ سياجِ القَنْطَرَةِ، وكأنَّها أفلَتَتْ من قِيَادِه...

ولاحَظَ أنني اكـتـشـفْـتُ انفـعَـالَهُ فَـقَـالَ لي، وهُوَ يَخْـرج بالسيَّارةِ من نفقِ الجسْرِ الحديدي:

ـ لا تَقْلَقْ، هَذَا يَحْدُثُ لي كُلَّمَا اقتَرَبْتُ منْ هذهِ القَنْطَرةِ المَشْؤومَةِ! يُخَيَّلُ إلَيَّ أنَّ حَادثاً سيَقَعُ لي!

فَقُلْتُ متَفَهِّماً:

ـ لا ألُومُك. فَـالقَنْطَرَةُ ضَـيِّـقَـةٌ جـداً على سـيَّـارَتَيْن، آن الأوَانُ لتَوْسيعها.

وكَـانَ قَـد اسـتَـرخَى قَليـلاً بَعْـدَ أنْ تَـرَكَ الجـسْـرَ الحَـديديَّ وَرَاءَهُ، فَحَرَّكَ رأسَه غيْرَ مُوَافقٍ، وقَال مُصَحِّحًا:

- لَيْسَ بسَبب ضيْق القَنْطَرَة.

وسكتَ قليلاً وأضَافَ:

- حقيقَةٌ، هناكَ نَاسٌ كثيرُونَ لاَ يُطيقُونَ الأماكنَ الضيِّقَةَ أو المُظْلمَةَ أو المصاعدَ... أعرفُ صَديقاً أورُوبِّياً...

وقْبلَ أن أبْدَأ في الحكَايَة، قَاطعَني مُحـرِّكـاً رأسَـهُ غـيـرَ مُوَافقٍ، مرةً أخْرَى:

- لا، لَيْسَ ذَلكَ هُوَ السبَبُ. السَّبَبُ الحَقيقيُّ هُوَ أن هَذه القَنْطرةَ المَلْعُونَةَ اقتَرَنَتْ في ذهْني بمحنَة الوالدِ وَوَفاته...

وثَقُلَتْ مَلامحُ وَجْهِه، وهوَ يسْتَرجعُ تَفَاصيلَ الحادثِ الذي لأبدَّ أنَهُ تَرَكَ عَلَى خَيَاله الشابٌ أو المُرَاهقِ أثراً عميقًا جداًّ، وقَالَ:

- حـدَثَ ذَلكَ في أواخـر سنة ١٩٥٥. في أوائلِ أيامِ الاستقلالِ. بعد عودةِ محمدِ الخَامسِ بأيَّامٍ قَلائلَ، طَرَقَ عَلَيْنَا البَابَ رجُلاَن من المِنْطَقَةِ الجنُوبية بَعد العِشَاءِ ففتَحْتُ لَهُمَا

البابَ، ودَخَلْتُ لأُخْبِرَ والدي. وخَرَجَ هُوَ إِلَيْهِمَا، فَتَحَدَّثَا معه لحظَةً ثم فتَحَ لَهُمَا الباب، وأدْخَلَهُمَا إلى الغُرفةِ الكَبيرةِ وَطَلَبَ من الوَالدَةِ إِعْدَادَ الشاي، وجَلَسَ يَتَحَدَّثُ إليهمَا.

واغْتَنَمْتُ فُرصَةَ اشتغَالِ الوَالدَةِ بإِعْدَادِ الشَّاي، ووقَفْتُ أسْتَرِقُ النَّظَرَ إلى الرجُلَيْن من وَرَاءِ السِّتَارِ. كَانَا يَلْبَسَان جِلبَابَيْن صُوفِيَّيْن، وَيَتَكَلَّمَان بلهجةٍ جَنُوبيَّةٍ بأصْوَاتٍ خَافتَةٍ. وَتَرامَتْ إلى سَمعي كَلمَاتٌ كَبيرَةٌ لَم أكن أفْهَمُهَا في ذَلكَ الوَقْتِ مثلَ «الفِدائيِّين» و«الشُّهَدَاءِ» و«الاسْتِعْمَارِ» و«الاستْقْلاَل»...

وَحينَ هيَّأتِ الوَالدَةُ الشَّايَ طلَبَتْ منِّي أنْ أُنَاديَ الوَالدَ لإِدْخَالِ الصِّينيَّةِ، ففعَلْتُ، وخَرجَ الوَالِدُ، وعلَى وجْهِه عَلائمُ الجدِّ والحيرةِ والتَّفْكيرِ، فأدْخَلَ الصِّينيَّةَ وأقْفَلَ خَلْفَهُ بَابَ الغرفةِ، وكَأنَّهُ يخْشَى أن يسْمَعَ أحَدٌ شَيْئاً ممَّا يُقالُ بداخلها.

ونمْتُ قَبْلَ أن يخرُجَ الرَّجلاَن. وفي اليوم التَّالي، وفي الوقْت نفسه، حَضَرَ الرَّجُلاَن، ومعهُمَا آخرَان.

ووَقَفْتُ خَلْفَ السِّتَارِ أُنْصِتُ لحَديثِهم بفُضولٍ، وأنظُرُ إلى

وجُوهِهِمْ مؤكدينَ أقوالَهُمْ، وكأنَّما يريدون إقناعَهُ بأمْرٍ خطِيرٍ. وتَرَامَتْ إلى سمْعي شَذَرَاتٌ منْ حديثِهم وكَلمَاتٌ كَبيرَةٌ أخْرى فَهِمْتُ من بينها «إسبانيا» و«الجيشَ» و«فرانْكُو» و«الجهادَ» . ورأيْتُ زَعيمَ الأرْبعَةِ يُخرِجُ من جَيبِ صَدْريته قنِّينَةً مَلْفُوفَةً في رُقْعَةِ قُمَاشٍ، ويَفسَخُ القُماشَ عَنْهَا، ويَعْرِضُهَا أمَامَ عَيْنَيْ والدي.

ورأيْتُ أبي يمُدُّ يَداً مُرْتَعِشَةً للإمْسَاكِ بالقنِّينَة الصَّغيرَةِ، ثُمَّ يُعيدُ لَفَّهَا في قُماشِهَا، ويَضَعُهَا في جَيْبِ صَدْرِيتهِ.

وجَاءتِ الوالدَةُ فأمْسَكَتْ بيدي مُعنِّفةً لي على سُوءِ أدبي وفضُولي، وأخَذَتْني إلى فرَاشي.

وفي الصَّبَاحِ، خَرَجَ والدي مبكِّراً، كَعَادَته لإعْدَادِ وجْبَةِ الفُطورِ لدار الكُولُونيل (كاسْطيَانُو). ولَكنَّهُ أخَذَ مَعَهُ حُلَّتَهُ الجديدَة التي لا يَلبَسُهَا إلاَّ إذا كَانَ الكُولُونيل سيُقيمُ مأدُبَةً فَاخرَةً لعَدَدٍ كبير منَ الضيُوفِ الكبَارِ سَيَأْتُونَ من إسبانيا، أو تطوان أو سبتةَ أو مليليَة. وهُمْ غالبًا ما يكونونَ من ذَوي رُتَبٍ أعلى من رُتبتهِ.

وتأخَّـر الوَالدُ في تلْك اللَّيْلَة، عَلَى عَـادَته حينَ يُقـيمُ الكَولُونيلُ حَـفلاً كـبيـراً. وانتَظَرْنَاهُ نَحْنُ إلى مُنْتَصَفِ الليل، والنعاسُ يُثْقِلُ أجْفَانَنَا ونَحْنُ نُمَنِّي أنفُسَنا بمَا سَيَحْمِلُهُ إلَيْنَا منْ دَارِ الكُولونيل من حَلويات إسبَانيةٍ لَذيذةٍ.

وحين سَـمِعْنَا طَرْقـاً عَلَى البَـابِ، قَـفَـزْنَا جَـمـيـعـاً فَـرِحينَ لفَتْحِه. ولكنْ بمجَرَّدِ ما فَتَحتُهُ دَفَعَهُ في وجْهي أحَدُ الرِّجَالِ الأرْبَعَةِ الذينَ جَاؤُوا لزيَّارَةِ الوَالدِ في اللَّيْلَتَيْن السَّابقَتَيْن.

وَتَبِـعَـهُ آخَـرُ أقْـفَلَ البـابَ خَلْفَـهُ، وتَوجَّـه إلَى أمِّي سَـائلاً وبخُشُونةٍ:

– أيْنَ زَوجُك؟

فَتَرَاجَعَتْ إلَى الوَرَاء خَائفَةً وَقَالَتْ:

– لَمْ يَعُدْ منْ دَارِ الكُولُونيل بَعدُ.

فَصَرَخَ الرَّجُلُ في وجْهِهَا بصَوْتٍ غَاضبٍ مَكْبُوتٍ حَتى لا يُسْمَعَ منَ الخَارج، وَقالَ:

– بل إنَّهُ هُنَا! أينَ يَخْتَفي؟

وأشَارَ برأْسِه إلى صَاحبِه ليَدخُلَ الغُرَفَ لتفتيشِهَا، وبقي

هُو يُحَاصرُ الوَالدَةَ، وينْظُرُ إلِيْنَا بعَيْنَيْن يَطيرُ منهُمَا شَرَرٌ أسْودُ.

وخَرَجَ صَاحبُهُ يُحَرِّكُ رأسَهُ:

– لَيْسَ هُنَا.

فَاقْتَرَبَ الآخَرُ منَ الوَالدَةِ أكْثَرَ، وأمْسَكَ بِرُسْغِهَا، ولَوَاهُ وَرَاءَ ظَهْرِهَا فصَرَخَتْ منَ الألَمِ:

– أيْنَ هُوَ؟

فَأجابَتْ باكيةً:

– لا نَدْري! لَم يَعُدْ بَعْدُ.

– إنهُ هُنَا. قُولي أيْنَ يَخْتَفي؟ لَقَد رَأيْنَاهُ خارجًا من دَارِ الكُولُونيل وَتَبعْنَاهُ حَتَّى دَخَلَ الزُّقاقَ.

وهُنا جَاءَ الرَّجُل الثَّاني، فَجَثَا أمَامي، وأمسكَ بذرَاعَيَّ، وسألَني بلُطْف:

– إذَا قُلْتَ لي أينَ يَخْتَبئُ أبُوكَ، أعطَيْتُكَ رِيَالَيْن. مَاذَا تَقُولُ؟

فَقُلْتُ:

– إنَّه لَم يَأتِ بَعْدُ. وقَد كُنَّا نَنْتَظرهُ ليُوَزِّعَ عَلَيْنَا الحَلْوَى.

فَلَطَمنِي عَلَى وجْهي لَطْمَةً قَويَّةً أوقَعَتْني عَلَى الأرْضِ، وصَرَخَتْ أمِّي، فَأمْسَكَ الرَّجُلَ بها منَ الخَلْفِ، وأقْفَلَ فَمَها بيدِه.

وَأمسَكَ الرَّجُل الآخَر بأُخْتي الصُّغْرَى، وأخْرَجَ من جيْبه سكِّينًا وضَعَهَا عَلَى عُنُقهَا، ونَظَرَ إلَى أُمِّي مُهَدِّدًا بذَبْحهَا إذَا هيَ لَمْ تَبُحْ بمَخْبَأ أبي.

ورأيْتُ الوَالدَةَ المسْكينَةَ، وقَد جَحَظَتْ عَيْنَاهَا من الرُّعْبِ، تحاولُ البَحْثَ في ذهْنِهَا المُرهَقِ عنْ طَريقَةٍ لإنْقَاذِنَا من أيْدي القَتَلَةِ...

وأسْعَفَهَا خَيَالُهَا فَهَمْهَمَتْ:

- إنَّهُ صَعِدَ إلى السَّطْحِ!

وألْقَى الرَّجُلُ الثَّاني بالطِّفْلَةِ المُرْتَاعَةِ أرْضًا، ورَفَعَ السُّلَّمَ وتَسَلَّقَهُ بسُرْعَة القِرْدِ إلى السَّطْحِ. وهُنَاكَ وقَفَ يُحَمْلِقُ في الظَّلاَمِ في عَشَرَاتِ السُّطُوحِ المختلفةِ الأحْجَامِ والارْتفَاعَاتِ والمُحيطَةِ بمَنْزلِنَا، وقَدْ تَرَاكَمَتْ فَوْقَها الأمْتعَةُ الباليةُ، وارْتَفَعَتْ منْ داخل بَعْضِ المَنازلِ أدْواحُ التينِ وَعرائشُ الدَّوالي.

وَفي هَذه اللَّحْظَة، سَمِعْنَا طَرْقًا عَلَى البَاب، فَتَرَكَ الرَّجُلُ الأوَّلُ أمِّي وَذَهَبَ لفَتْحِه، وقَدْ أخْرَجَ منْ جَيْبِ سُتْرَته مُسَدَّسًا. وَخَشِينَا عَلَى الوَالدِ من أنْ يَقَعَ في الفَخِّ.

ولكنَّ الطَّارقَ كَانَ وَاحداً من العِصَابة، فَهَمَسَ لصَاحبِه شَيْئاً، فَعَادَ هَذَا وَتَسَلَّقَ السُّلَّمَ وَنَادَى صَاحبَهُ فَنَزَل وَخَرَجا.

ولَمْ يَعُد الوَالدُ في تلْك اللَّيْلَة، وَلاَ في اليَوْمِ التَّالي إلى الدَّار. وَذَهَبَتِ الوَالدَةُ للسُّؤالِ عَنْهُ في مَنْزلِ الكُولُونيل (كَاسْطيَانُو). وكَانَ هَوَ الآخَرُ، قَد بَعَثَ في طَلَبِه. ولمّا عَلِمَ بعَدَم عَوْدته إلَى دَاره، أقَامَ الدُّنْيَا وأقْعَدَهَا بَحْثًا عَنْهُ في كُلِّ مَكَانٍ. وجَاءَ بنَفْسِه إلى منزِلنَا، وقَابَلَ الوَالدَةَ، وألْقَى عَلَيْهَا عَدَدًا من الأسْئلَة، فَعَرَفَ أنَّ جَمَاعَةً جَاءَتْ لزيَارَته في اليَوْمَيْن السَّابقَيْن لحَفْلَته الكَبيرة، جَمَاعَةٌ منَ الغُرَبَاءِ عَنِ المَدينَة، وحينَ سَألَهَا:

- هَلْ قَالَ لَكِ شَيْئاً عَنْهُمْ؟

قَالَتْ: لاَ، رفَضَ تَمَامًا الحَديثَ عَنْهُمْ، وَلَكنَّهُ أُصيبَ بقَلَقٍ شَديدٍ بَعْدَ زيارَتهمْ، لدَرَجَة أنَّهُ لَمْ يَنَمْ تلْكَ اللَّيْلَة إلاَّ لمَامًا،

وكَـانَ يَسْـتَـيْـقِظُ مِنْ نَوْمِـهِ مُنْزَعِـجًـا يصـيح «لا! لا!» والعَـرَقُ يَتَصببَّبُ عنه!

وطَمْـأَنَ الكُولُونيلُ الوَالدَةَ، وأخْـرجَ مِـحْـفَظَتَـهُ، وَوَضَـعَ في حِـجْـرِهَا مَـبْلَغًـا من الأوْرَاقِ المَاليَّـةِ، وأعْطَانَا، نحـن الصِّـغَـارَ، رِيَالَيْنِ للْوَاحدِ، وهُوَ مَبْلَغٌ ضَخْمٌ بالنِّسْبَةِ لطفْلٍ صَغيرٍ مثْلي.

ولَمْ نَعْـرِفْ مَـا وَقَعَ للوَالد حَـتَّى قـيلَ لَنَا إنَّهُ يُوجَـدُ بأحَـدِ مـسْتَـشْـفَـيَـاتِ (العـرَائش). وجَـاءَتْ سـيَّـارَةُ جَـيْشٍ أرْسَلَهَـا الكُولُونيلُ إلَيْنَا لتَحْملَنَا إلَى العَرَائشِ لنَرَاهُ. وذَهَـبَ مَعَنَا خَالُنَا.

وحينَ دَخَلْنَا علَيْـه في غُـرْفَـتِـه بالمُسْـتَـشْـفَى العَـسْكَري الإسْبَاني، وَجَدْنَاهُ مَلْفُوفاً كُلَّهُ في الضِّـمَـادَات لا تَبْـدُو منْهُ إلاَّ عيْنَاهُ وشَفَتَاهُ. وكَانَ ذرَاعُهُ مَوْصُولاً إلى زُجَاجَـةِ دَمٍ مُعَلَّقَةٍ إلَى جَـانبِ السَّرير بأنْبُـوبٍ منَ البَـلاستـيك الشَّـفَّـافِ، يَسْـرِي منْهَـا السَّائلُ الحَيَوِيُّ إلَى عُروقِه.

وبكَـتْ أمِّي لمنظَرِه. وبَكَيْنَا نَحنُ لبكَائهَا. ووقَفَتْ المُمَرِّضَةُ الإسْبَانيةُ في حُلَّتِهَا البَيْضاءِ، تُهَوِّنُ عَلَيْهَا وتَنْصَحُهَا بعَدَمِ إثَارةِ مشَاعِره وتَرْكِهِ يَسْتَريحُ. وقَالَتْ لَنَا إنَّهُ فَقَدَ، في محنَته، كَثيراً

منَ الدَّمِ، وَهُوَ بحاجةٍ إِلَى عنَايَةٍ خَاصَّةٍ.

ومَنَعَتْهُ منَ الكَلاَمِ، فَكَانَ يَنْظُرُ إِلَيْنَا في صَمْتٍ وَحَسْرَةٍ، وقَدْ أغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ بالدُّمُوعِ.

ومرَّ أسبُوعٌ كُنَّا نَزُورُهُ فيه كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ، ونَحْمِلُ إِلَيْهِ الفَوَاكِهَ، وأُمِّي تُسَلِّيه بأحَاديثِهَا، حتَّى أَذِنَتْ لَهُ المُمَرِّضَةُ في الجُلُوسِ، وأزَالَتْ عَن وجْهِه الضِّماداتِ فَبَدَا مُخيفًا بمَا كَسا وجْهَهُ من كَدْمَاتٍ وَرُضُوضٍ وجُروحٍ مَخيطَةٍ لمْ تَنْدَملْ بعْدُ.

وَسَأَلَهُ خَالي عَمَّا حَدَثَ فَحَكَى لَهُ عَن الرِجَالِ الأرْبَعَةِ الذينَ زَارُوهُ في البيتِ (بأصيلةَ) وكيفَ أنَّهُمْ أفْهمُوهُ أنَّهُمْ جَاؤُوا من (الدَّارِ البَيْضَاء) في مُهمَّة سِياسيَّة ووَطَنيَّةٍ سرِّيةٍ خَطيرَة. وأنَّ الذينَ أرْسلُوهُمْ فُلانٌ وَفُلاَنٌ، من كبَارِ الزُّعَمَاءِ وَقَادَةِ الخَلاَيَا الفدَائيَّةِ السِّرِّيةِ، وأنَّ نَجَاحَ الْمُهمَّة يَعتمدُ عَلَيْه، وعلَى إيمَانه وغيرته الوطنيَّةِ كُلَّ الاعتماد... وأنَّهُمْ أخْبَرُوهُ بأنَّ (فرنسا) قَرَّرَت الانْسحَابَ منَ (المَغرب) ومَنْحَهُ الاستقْلاَلَ... وَلَكنَّ (إِسبَانْيَا) تدبِّر لاحتلاَله بمجَرَّدِ انسحَابِ الجَيْشِ الفرنسي، وأنَّ المجَاهدينَ قَرَّرُوا إِعلانَ الحرْب عَلَى (إسبانيَا)

لإرْغَامهَا، هيَ الأخْرَى، عَلَى الخُروجِ من الشَّمَالِ. وأنَّ مُهمَّتَهُ هُوَ، هَي أنْ يَضَعَ لضُبَّاطِ الجَيْشِ الإسباني الذينَ حَضَروا مأدُبةَ الكُولونيل (كَاسْطيَانُو)، السُّمَّ في طَعَامِهم. وَوعَدُوهُ بمنصبٍ كَبيرٍ في الحُكُومَة الوَطَنيَّة.

قَالَ الوَالدُ:

- واقْتَنَعْتُ بالفكرةِ. فقدْ كُنْتُ دائماً أتحسَّرُ عَلَى عَدَم مُشَارَكَتي في مَعْرَكةِ التَّحْرير، وأنَا جُنديٌّ وقَادرٌ عَلَى القتَال. وكَانَ يُعَزِّيني أنَّ (إسبَانْيَا) تَقِفُ في صَفِّنَا، وُتؤْوي الفدَائِّيينَ في الشَّمَالِ، وتُغْمِضُ العَيْنَ عَنْ تَهْريبِ السِّلاَحِ إلى الجَنْوبِ.

وَلَكنَّ الجَمَاعَة أوغَرتْ صَدْري عَلَيْهمْ حينَ فَسَّرَتْ لي ذَلك بأنَّهُ مُجَرَّدُ عَمَليَّة انتقامٍ من (فَرنْسَا) التي رَفَضَتْ إعطَاءَ (إسبانيا) نَصيبًا أكْبَرَ منَ (المَغْربِ)، كَما كانَ الاتِّفَاقُ بَيْنَهُمَا أيَّامَ الاحْتلاَلِ. وأنَّ اللقاءَ الَّذي تَمَّ في (العَوَامْرَة) بَيْنَ المُقيمين العامَّين الفرنْسي والإسْبَاني، كَانَ لمُحَاوَلَة إقْنَاعِ (إسْبانْيا) بإقْفَالِ البَابِ عَلَى الفدَائِّيين، وأنَّ هَذه طَلَبَتْ، في مُقَابلِ ذَلكَ، تَنَازُلَ (فرنسا) لَهَا عن جُزْءٍ أكْبَرَ من الشَّمَالِ يَصلُ إلى

(القنيطرةِ) و(فَاسَ) وَ (تَازَة) وَ (وجدةَ) . ولَكنَّ (فَرنْسا) رفضَتْ، فاسْتَمَرَّتْ (إسبانيا) في مُسَاعَدَةِ المَغَاربَةِ إلى أن تَخْرُجَ (فرنسا) لتَنْقَلِبَ عَلَيْهمْ وتَحتلَّ بقيةَ التُّرابِ المَغْربي.

وَعَقَدتُ العَزْمَ عَلَى صَبٍّ زجَاجَةِ السُّمِّ كُلِّهَا في جَميعِ الأطْعمَةِ التي طَبَخْتُهَا للمَأدُبَة. ولكنِّني، حينَ حضرَتِ السَاعةُ الرهيبةُ، لم أستَطعْ. تَذكَّرْتُ العِشْرَةَ الطَّويلَةَ التي جَمَعَتْني بالكُولُونيل (كَاسْطيَانُو)، وَجَميع أفْرَادِ عَائلته، خُصُوصًا أطْفَالَهُ الذينَ وُلدُوا وتَربَّوا أمَامي كَأوْلادي. تذكرتُ شرْكَةَ الطَّعَامِ وعِشْرَةَ الأيَّامِ، فَأخْزَيْتُ نُفْسي، ورميْتُ بالزُّجَاجَةِ القَاتلَةِ بَعيداً. أحسَسْتُ أنَّ مثْلَ ذلكَ العملَ الجبانَ غَدْرٌ للعِشْرَةِ وَخيَانَةٌ للطَّعَامِ. وحَاشَا للْمُسْلمِ المُؤمنِ أن يَفْعَلَ ذَلكَ.

ومَرَّ يَومَان عَلَى المأدُبَةِ. وفي ليْلَةِ اليَوْمِ الثَّاني، وأنَا عَائدٌ إلَى منْزلي بَعْدَ صَلاَة العشَاءِ، نَزَلَتْ عَلَى رَأسي ضَرْبَةٌ قَويَّةٌ لمْ أَفقْ منْهَا إلاَّ وأنَا بَعيدٌ عَن (أصيلَةَ) . فَتَحْتُ عَيْني فَوَجَدْتُ نَفْسي مُكَبَّلاً بحَبْل في كُوخٍ صَغيرٍ. وَدَخَلَ عَلَيَّ الزَّبَانيَّةُ الأرْبَعَةُ.

وَسكَتَ... وأغمضَ عَيْنَيْه، وقَطّبَ جَبينَهُ كَمَن يَسْري في جَسَدِه ألَمٌ حَادٌّ ثُمَّ فَتَحَ عينيه، ونَظَرَ إِلَيْنَا، ثُمَّ إِلَى خَالي فَفَهِمَ هَذَا قَصْدَهُ، وطَلَبَ منا مُغادَرَةَ الغُرْفَة والخُروجَ للَّعبِ في حَديقَةِ المُسْتَشْفَى.

ولَكنِّي، رَغْمَ صِغَرِ سنِّي، أدْرَكْتُ سَبَبَ إِخْرَاجنَا منَ الغُرْفَة. وعَلمْتُ فيمَا بَعْدُ أنَّ الرِّجَالَ الأرْبَعَة تَنَاوَبُوا عَلَى تَعذيبِ الوَالد وإهَانَتِه وَدَعْوَتِه بالخَائنِ لوَطنه والبَصْقِ في وَجْهِه ولَكْمِه وركْلِه وكَيِّه بالحَديدِ المُلْتَهِب وتَمزيقِ لَحْمِه بالسَّكاكين ووضْعِ الملحِ في جُرُوحِه، مُدَّةَ خمسَةِ أيَّام بدُون طَعَامٍ وَلاَ مَاءٍ، حَتَّى استَسْلَمَ وأُغْمِيَ عَلَيْه، ودَخَلَ في غَيْبُوبَة، فَظَنُّوا أنَّهُ ماتَ. وأخَذُوهُ في سيارةٍ لَيْلاً إِلَى جسْرِ نَهْرِ (سَبْو)، جَنُوبَ قريةِ (عَلاَّلٍ التَّازي)، وحَاوَلُوا الإِلْقَاءَ بِه في النَّهْرِ. ولكنَّ سيارَةً فَاجَأتْهم، فَألْقَوا به عَلَى جَانبِ الطَّريق، وَلاَذُوا بالفرَارِ...

وتَوقَّفَتِ السيَّارةُ، وأخَذُوهُ إلى نُقْطَةِ الشُّرْطَةِ بالقَرْيَة، وأخْبَرُوهُمْ بمَا رَأوا، فَانْطَلَقَتْ سَيَّارَةٌ في إِثْرِهِمُ. وكَادَتْ

تُدْرِكُهُمْ في مَدْخَلِ مَدينَة (القنيطرَة) لَولاَ أنَّ سيَّارةَ العِصَابَة اصطدمَتْ بشَاحنَةٍ عَسْكَريَّةٍ فَرَنسيةٍ ضخمةٍ خَرجَتْ لَهَا منْ جَانبِ الطريقِ دونَ ضَوءٍ، وَقُتلَ جَميعُ منْ كَانَ في السيَّارةِ الهَاربَة. ولَمْ يَجدْ رجَالُ الدَّرَكِ الذينَ كَانَ مَا يَزَالُ أغْلبُهم منَ الفَرَنْسيِّينَ بطاقاتِ تَعْريفٍ مَعَ أيٍّ وَاحدٍ منَ الأرْبَعَة، فَأخَذوهُمْ إلَى مُسْتَودَعِ الأمْوَاتِ (بالقنيطرَةِ) في انْتظَارِ أنْ يَفْتَقدَهُمْ أحَدٌ. إلاَّ أنَّ سائقَ الشاحنةِ العسكريةِ كان يعرِفُ مَنْ هُمْ، وكانت له أوامرُ بقْتِلهِم حتى لا تنكشِفَ المؤامَرةَ!

* * *

وهكَذَا طُوِيَ ملَفُّ هَذهِ القَضيَّةِ. وعَاقَبَ اللّهُ المُجْرمينَ الأرْبَعَةَ، وأيْديهم مَا تَزَالُ مخَضَّبَةً بدمِ ضَحيَّتِهمْ، وصُرَاخُ الأمهِ واسْتغَاثَتِه مَا يَزَالُ يَرِنُّ في آذَانِهمُ.

* * *

قَالَ صَديقي مُحمد :

« وسَكَتَ ميْمُونُ، ونحْنُ عَلَى أبْوَابِ (القنيطرةِ)، ونَظَرْتُ إلَى وَجْهِهِ وقَد ارْتَسَمَتْ عَلَيهِ آثارُ الإرْهَاقِ، وكَأنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ

عبْئاً ثَقيلاً. وهكَذَا عرفْتُ، بالصُّدْفَةِ، قصةً من أغربِ ما سَمعتُ.»

وسَكَتَ صَديقي، وأنَا مَا أزَالُ أنْتَظرُ أنْ يَخْرُجَ من الحَدَثِ الذي رَوَاهُ باسْتنْتَاجٍ مَا... ولَكنَّه عادَ إلى موضُوعِنَا الأوَّلِ قبْلَ استطْرَادِهِ الوَاسعِ ليَتَحَدَّثَ عَن الفَجوة بينَ الأجْيَال، فَاسْتَوقَفْتُهُ سَائلاً:

«ألَمْ تستنتجْ شَيئاً من هَذه الوَاقعَةِ؟ وأنْتَ الصَّحَافيُّ، والتِّلَفزْيُوني وَالإذَاعيُّ؟»

وكأنَّمَا فُوجئَ بسُؤَالي فَنَظَرَ إلَيَّ مُسْتَفْهِمًا، فقُلت: «ألَمْ تتساءَلْ لمَاذَا حَاولَتِ العِصَابَةُ تَسْميمَ الضُّبَّاطِ الإسْبَانِ؟! ألَمْ تُدْرِكْ أنَّ العَمَليَّةَ لَهَا أبْعَادٌ سياسيةٌ خَطيرَةٌ؟»

- كَيْفَ؟

فَقُلْتُ: «لنَفْرِضْ أنَّ (مَيْمونَ الطَّبَاخَ) سَمَّمَ الضُّبَّاطَ؛ ماذَا كَانَ سَيَكُونُ رَدُّ فعل (إسبانيا)؟»

ولَمعَتْ الشُّعْلَةُ في عَيْنَيْ جَليسي، وبَدَأ يَرَى بعَيْنِ خَيَالِه خُيُوطَ المُؤَامَرَةِ، فَأسْرَعَ إلَى القَوْل:

« لأبُدَّ أنَّهَا كـانَتْ سَتَغْضَبُ غَضَبًا شَديدًا! وكَانَ الرأيُ العامُّ الإِسْباني سَيُطَالِبُ بدَم القَتَلَة، فكَانت سَتَقْلِبُ سياسَتهَا في الشَّمَالِ، وتَنْضَمُّ إلى (فرنسا) وتسْحَقُ جَميعَ الفِدَائيينَ الذينَ كَانُوا يملؤون مُدنَ الْشمال. »

وتَوقَّفَ ثُمَّ سَألَ:

« ولكن، إِذَا كَانتْ (فَرَنْسَا) ببَرْلَمَانهَا، وحُكُومَتِهَا قَدْ صَادَقَتْ عَلَى مَنْحِ (المَغْربِ) الاستقْلاَلَ، فلمَاذَا تُحَاولُ التَّرَاجُعَ بهَذِهِ الطَّريقَةِ الملتَويةِ المَشْبُوهَةِ؟ »

قُلْتُ:

« لاَ أعْتَقِدُ أنَّ (فَرنسا) الرَّسْميةَ فَعلَتْ ذَلكَ. »

« إِذَنْ؟ » وأشرقَتْ في ذهْنِه الفِكْرَةُ:

« فَمَنْ كَانَتْ لَهُ مَصْلَحَةٌ في ذَلكَ؟ »

وأجَابَ عن سُؤَالِه: « الجَيْشُ الفَرنسيُّ، إِذَن! جَمعيةُ الوجُودِ الفرنسي الشَّهيرَةُ! »

فَضَرَبَ جَبْهَتَهُ بيَده:

« كيفَ لَمْ يَخْطُرْ هذَا ببَالي؟! »

قُلْتُ: «إِذَا كَانَ ملَفُّ القَضِيَّةِ قَدْ طُوِيَ في حينه، فَلاَ أعتقدُ أن أحَداً عَرَفَ بهَذَا الحَادثِ. فَنَحنُ، إِذَنْ، أمَامَ فَذْلَكَةٍ مَجْهُولَة من تَاريخِ (المَغربِ) الذي لَم يَحدُثْ! فَمَاذَا، يَا تُرَى، لو كَانَتْ نَجَحَتِ المُؤَامَرَةُ؟»

فَقَالَ: «لاَ بُدَّ أنَّ دماءً كثيرة كانت ستُهْرَقُ قَبْلَ أن نتمكَّنَ من إِيقَافها. وأنَّ تَاريخَ (المغربِ) الحديثَ كان سَيتغيَّرُ تغيُّراً كبيراً. وُرُبَّمَا كَانَ سَيَتَأخَّرُ اسْتقْلالُهُ سَنَوَات أخْرَى. وَقَدْ حُقِنَ ذلكَ الدَّمُ بفَضْلِ وَفَاءِ ذلكَ الطَّباخِ البَسيطِ لمَبَادئِه الإِنْسانيَّة المُتَأصِّلَةِ في نَفْسه.

ومَاتَ المسْكينُ، وهوَ يَعتَقدُ أنَّهُ خَانَ قَضيَّةَ بلاَده.»

وسَكَتَ لحظَةً ثُمَّ أضافَ:

«وَحَتَّى ابْنُهُ يَتَذَكَّرُ الحَادثَ بمَرَارَة، وكَأنَّه، هُوَ الآخَر، يَعْتَقِدُ أنَّ أباهُ رَفَضَ التَّعَاوُنَ مَعَ الوَطَنيِّينَ، وتَعَاوَنَ مَعَ المُسْتَعْمر!»

قُلْتُ: «عَلَيْكَ، إِذَنْ، أنْ تَبْحَثَ عَنْهُ لتَحُلَّ عُقْدَتَهُ، وتُبَشِّرُهُ بأنَّ أبَاه مَاتَ بَطَلاً وهُوَ لاَ يَدْرِي!»



فدائي في هوليوود

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

كـان "أَلْفْـريدْ طومـاس" يعـملُ في أحـدِ اسـتـوديوهاتِ هوليوود كعاملٍ بسيطٍ وراءَ الكاميراتِ. كانَ يفعلُ ما يُطْلبُ منه أثناءَ تصويرِ أيِّ فيلمٍ مثلَ توجيهِ الأضواءِ، أو سحبِ حبالِ الكاميـراتِ التلفـزيونيـةِ، وحـتى تقـديمِ القـهـوةِ والمشـروباتِ للضيوفِ.

كـان من أصلٍ عـربي شـاميٍّ، جـاءَ جـدُّه الأولُ إلى «نيويورك»، واستقرَّ في بروكلين حيثُ فَتَحَ دكانَ بقالةٍ شرقيًا، وكانَ من بينِ أوائلِ المؤسّسين للحيِّ العربيِّ هناك.

ونصحَ الأسـرةَ قـريبٌ عـربيٌّ بأن تُغـيِّـرَ اسـمَـها تسـهـيلاً للاندماجِ في المجتمع ودَفْعًا للتَّمـييزِ العنصـريِّ الذي يعانيه العـربُ يوميًـا من العنصرِ الصـهـيـونيِّ، فأصـبحَ اسمُ «فَـريدٍ طُعْمَة» «أَلْفرِيد طوماس».

وانتقل والده إلى مدينة (سيدَرْ رَاپيدْزْ) بولاية (أوهايو) حيثُ فتح مطعمًا صغيرًا للجاليةِ العربيَّةِ الكبيرةِ هناك. وهناكَ وُلِد فريدٌ وترعرعَ.

لم يكنْ (أَلْفريد) ذا ذكاءٍ علميٍّ كبير، فلم يقطعْ أشواطًا

بعيدةً في دراستهِ، وانقطعَ عن المدرسةِ في منتصفِ الثانوي وانضمَّ إلى والده كشريكٍ في إدارةِ المطعمِ.

ولكنَّ أضواءَ السينما والتِّلفزيون جذبتْه إليها بقوةٍ سحريةٍ جبارةٍ لم يستطعْ مقاومتَها. كان وسيمًا رغمَ ميله إلى الامتلاءِ والقصرِ. وسبَقَ له أن مثَّلَ في مسرحياتٍ مدرسيَّةٍ أحْرزَ فيها نجاحًا كبيرًا وذاقَ طعمَ الشهرةِ، رغمَ ضيقِ دائرتِها، وما يأتي معها من تهافتِ المعجباتِ عليه ورسائلهِنَّ المعطرةِ إليه!

وكوَّن عن نفسه ملَفًّا أنيقًا من قُصاصاتِ الصحفِ المحليةِ التي غطَّت مسرحياتِه وظهرتْ فيها صُوَرُهُ على الخشبةِ، وحملَه في عطلتِه إلى «هوليوود»، ومعه أحلامُه الملوَّنةُ بألوانِ سماء أوهايو في أن يصبح نجمًا لامعًا تعتزُّ به أميريكا وقومه العرب.

واستنفذَ كلَّ ما في القاموسِ من حِيَلٍ ليُقْنِعَ المخرجين باستعمالِه في بعضِ أفلامِهم. كانَ في البداية يطمعُ في أحدِ أدوارِ البطولةِ. والتقى في مقاهي المدينةِ بالعديدِ من الطامحين من أمثالِه. وأُسْقِطَ في يدهِ حين وجدَ أن الكثيرينَ منهم أطولُ

قاماتٍ وأكثرُ جمالاً ومواهبَ ومعارفَ في الوسطِ الفنيِّ منه هو، ومعَ ذلك فَهُمْ ما يزالونَ يتسكَّعونَ بين الأستُوديوهات...

وانخفضَ مستوى طموحِه من البطولةِ إلى دورٍ ثانويٍّ، ثم إلى دورٍ كيفما كان «لأكْلِ العيش!»

ويئسَ من تحقيقِ أبسطِ مستَوى من مطامحهِ العريضةِ التي حملَها معه من (سيدَرْ - رابيدز) إلى (هوليوود)، واكتفى بعملٍ صغيرٍ في الأستوديو دَبَّره له شخصٌ يهوديٌّ كان قد تعرَّف عليه (ألفريد طوماس) وأوحى إليه في سياقِ الحديثِ بأنَّه من أمٍّ يهودية وأبٍ أنجليكاني. وقَبِل العملَ في الأستوديو ليكونَ قريبًا من الأضواءِ والنجومِ والمخرجين، وأَبَاطِرَةِ (هوليوود) غيرِ المتَوَّجين، لعلَّ أحدَهمُ يلاحِظُه، أو لعلَّ ممثلةً كبيرةً تميل إليه، فتفتحُ لهُ الأبوابُ السماويةُ!

واستغرقَه عملُه اليدويُّ التافهُ والمثيرُ، في نفسِ الوقتِ، لما يروجُ أمامَه من أحداثٍ مختلفةٍ كلَّ يوم، ولِمَا يسمعُه في الكواليسِ من إشاعاتٍ عن فضائحَ وعلاقاتِ النجومِ والمخرجين، وكبارِ رجالِ المالِ والسياسةِ والأعمال.

ونَسيَ هُويتَه العربية. ولم يعدْ يربطُه (بلبنانَ) و(الشامِ) إلا ذكرى بعيدة «غامضة» تزدادُ ضبابيةً وبعداً كلَّما مرَّتْ عليه الأيامُ والسنواتُ في أدغالِ (هوليود). ولم يبقَ يُذكِّره بِهُويتهِ إلاّ شيئان: زيارتُه في أعيادِ الميلادِ ورأسِ السنةِ لأُختهِ (فايقة) – فاي – التي تزوجتْ بمهاجرٍ عربيٍّ فلسطينيٍّ، فكان يسمعُها تُكلِّمُه بعربيةٍ مُطعَّمةٍ بالإنجليزية، وتحاولُ تعليمَ أطفالِها بعض الكلماتِ والعباراتِ العربيةِ.

والشيءُ الثاني: هو استمرارُ الاحتلالِ الصهيونيِّ لفلسطين، واعتداءاتُه على (لبنانَ) والبلادِ العربيَّةِ، وتشويهُ الصحافةِ الصهيونيَّة بأنواعِها لسمعةِ قومِه، وسخريَتُها من تخلفِهم وفُرقَتِهم وتطاحُنِهم، وتضخيمُ فضائحِهم والسرقاتِ التي يقعُ ضحيتَها أغنياؤُهم الجهلةُ في (أوروبا) وخسائرُهم الخياليةُ على موائدِ القمارِ المغشوشةِ، وغيرُها ممّا كان يثير أعصابَه...

ورغمَ أنه كانَ يَعُدُّ نفسَه أمريكيًا ويفخرُ بجنسيتهِ فإن ذلكَ كانَ يحزُّ في نفسهِ كثيراً... ولكنَّه تعلَّمَ أن يُخْفِيَ

حقيقةَ مشاعره وراءَ قناعِ ابتسامةٍ بليدة حتَّى لا يكتشفَه الصهاينةُ فيُلْقوا به إلى الشارع!

ولم تستيقظْ حَمِيَّتُهُ العربيةُ في يومٍ من الأيامِ كما استيقظتْ يومَ زارَ السفيرُ الإسرائيليُّ الأستوديو، واستقبلَه رئيسُ المؤسسةِ الضخمةِ على البابِ بحفاوةٍ تليقُ برئيسِ دولةٍ، وعقدَ معهُ، فَوْرَ وصولِه، اجتماعًا مُغْلقًا في مكتبِه الفاخرِ الفسيحِ مع عددٍ صغيرٍ من أعوانِه المقربينَ.

وحاول (ألفريد) أن يعرفَ الهدفَ من الاجتماعِ فلم يُفْلِحْ.

وبعد الاجتماعِ المغلقِ أُقيم حفلُ استقبالٍ على شرفِه تطوَّعَ (ألفريد) فيه بتوزيعِ المشروباتِ والمُقبِّلاتِ.

وظلّ يحومُ بالصينيةِ حولَ دائرةِ السفيرِ والدوائرِ المحيطةِ بها، ويُرْهِفُ سمعَه للحديثِ حتى التقطَ ما عرفَ منهُ أن السفيرَ جاءَ مُكلَّفًا من الحكومةِ الإسرائيليَّة، ليطلُبَ من أصدقاءِ بلدِه أن يساعدوا في حملةٍ إعلاميَّةٍ واسعةِ النطاقِ هدفُها تسويدُ سمعةِ العربِ في القارةِ الإفريقيَّةِ بأفلامٍ كبيرةٍ

ومسلسلاتٍ تلفزيونيةٍ تشويقيةٍ تصوِّر عدداً من العائلاتِ العربيةِ المسلمةِ المقيمةِ بإفرقيا كتُجَّار عبيدٍ في الماضي لإثارةِ النعراتِ العنصريَّةِ ضِدَّهم.

وعلِمَ كذلكَ أن «إسرائيلَ» تنوي العودةَ دبلوماسيًّا إلى إفريقيا، بعد اتفاقيةِ «كامب ديفيد»، وتطبيعِ العلاقةِ مع «مصرَ»، أكبرِ دولةٍ عربيَّةٍ إفريقية. ولابدَّ من تحطيمِ وتلطيخِ أسماءَ لامعةٍ من أصلٍ عربيٍّ هناكَ قبلَ بدءِ الحملةِ.

ولم يكن أحدٌ أدْرى من «فريد طعمة» بسلطةِ الفنِّ السابعِ على العقولِ والأرواحِ وقدرتهِ على تشكيلِ الرأيِ العامِّ وقَلْبِ الحقائقِ التارخيَّةِ وبثِّ البلبلةِ والمغالطاتِ بينَ عامَّةِ الناسِ، وخلقِ التعصبِ لقضيةٍ ما أو ضدِّها بين الجماهيرِ الخاليةِ الذهنِ، والتي تُصوِّت - للأسف! - في الانتخاباتِ وتُطالبُ نُوَّابَها بحمايةِ «إسرائيلَ المسالمةِ» من جيرانها العربِ المعتدين!

ولكنْ، ماذا يفعلُ عاملٌ بسيط مثلُه أمامَ الآلةِ الصهيونيَّةِ الجبَّارةِ التي تقفُ وراءَها أموالُ صهيونَ كلُّها وثلاثةُ آلافِ سنةٍ من المرارةِ والحقدِ والخديعةِ والكيدِ والنصبِ والاحتيالِ في كلِّ أرضٍ، وبكلِّ لسانٍ؟!

وحتى لا يَخلُقَ لنفسِه سببًا مجّانيًا من أسباب التعاسةِ فقد تجنبَ التفكيرَ في الموضوعِ وحاولَ ركْنَه في زاويةٍ مظلمةٍ من عقلهِ الباطنيِّ.

ولكن الحَدَثَ كانَ أكبر من أن يهرُبَ منه، خصوصًا وهو يعيشُ في قلبهِ ويحيطُ به من كلِّ جانبٍ!

وفي هذه الفترة التقى بسكرتيرةِ أحدِ المنتجين كانَ بينهُما استلطافٌ متبادلٌ. كان يتغذّى في كافيتيرية الأستوديو، فانضمَّتْ إليه بصينيتِها وجلستْ تثرثرُ في مواضيعَ عدّةٍ إلى أن دخلتْ في موضوعِ الشريطِ الإفريقيِّ الجديدِ، وسألتْه هل سيعملُ فيه؟

ومنها عرفَ تفاصيلَ دقيقةٍ عن السيناريو لأنها كانتْ ترقُنُه. كان عبارةً عن وثيقةِ إعلانِ حربٍ على العنصرِ العربيِّ في إفريقيا وتحريضٍ سافرٍ على سفكِ دمه، على غرارِ ما فعلَ (نيريري) في (زنجبار) بأعيانِ العائلاتِ المسلمةِ حينَ أبادَها عن آخرِها في أحدِ ملاعبِ الكرةِ نساءً ورجالاً وأطفالاً ليَصْفُوَ له الجوُّ لضمِّ الجزيرة!

وزاد ذلكَ في ألم (ألفريد) ويأسِه، ولكنَّه ظلَّ يُنصِت إلى صديقتهِ باهتمامٍ محسوبٍ لتشجيعها على المزيد...

وانتهى الإعدادُ للفيلمِ بعد عامٍ كاملٍ، وانتقلتْ فِرَقُ التصويرِ إلى عينِ المكانِ في عددٍ من الدولِ الإفريقيَّةِ التي وُعِد رؤساؤها بنُسَخٍ مجانيَّةٍ من الفيلمِ وحقوقِ استغلالِه تجاريًّا داخلَ البلدِ حتى يضمنَ أصحابُه بلوغَ الرسالةِ!

وانشغلتْ فرقٌ أخرى بتصويرِ المشاهدِ الداخليَّةِ باستوديوهاتِ الشركةِ في هوليود.

كان الفيلمُ يدورُ حولَ قصةٍ غراميَّةٍ بطلُها مناضلٌ إفريقيٌّ شابٌّ يدعو إلى التخلُّصِ من الاستعمارِ العربيِّ، وفتاةٍ يهوديَّةٍ حسناءَ تُساعدُه على تحقيقِ حُلْمِ قومِه!

* * *

وبعدَ سنةٍ ونصفٍ تمَّ تصويرُ الفيلمِ وتوظيبُه، وأصبحتْ النسخةُ الأولى والوحيدةُ جاهزةً للعرضِ.

وجاءَ السفيرُ الإسرائيليُّ من واشنطن لحضورِ الحدثِ الإعلاميِّ الهامِّ الذي كان ثمرةَ تفكيرِه، والذي تبنَّتهُ الحكومةُ الإسرائيلية بالإجماع!

وأعـدَّتِ الجـاليـةُ الإسـرائيليـةُ في (لوس أنجليس) حـفلَ استقبالٍ كبيرٍ تكريمًا لجميعِ الذين شاركوا في إنتاجِ الفيلمِ في أحدِ أفخمِ فنادقِ (هوليوود) ليحضروه بعدَ عرضِ الفيلم.

وكلمـا اقـتـربَ مـوعـدُ عـرضِ الشـريطِ زادتْ كـآبةُ (فـريد طعمة) وانسحابُه من ضوضاءِ الإعدادِ للحدثِ الكبيرِ، وأحسَّ بمغْصٍ في بطنه!

وقَبْلَ العرضِ بساعتين، وجدَ نفسَه في قَبْوِ الأستوديو يجمعُ براميلَ القمامةِ ليأخذَها إلى المَحْرَقِ قبل الوقتِ. كان يريدُ أن يشغلَ نفسَه بأيِّ شيءٍ حتى لا يتَميَّزَ من الغيظِ!

وفي طريقِه، في أحدِ سراديبِ القبْوِ، مَرَّ بخزانةِ الأفلامِ المنيعةِ التي كانتْ تشبهُ باب خَزْنَة بنكٍ، فلاحظَ أنها مفتوحةٌ والبخارُ الباردُ يخرجُ منها، والنورُ بداخلِها. وأطلَّ فيها فإذا المحافظُ يجمعُ رزمةَ بَكَراتِ فيلمٍ ويصُفُّها فوقَ عربةِ يدٍ. فخطر ببالِه أن هذا الشريطَ قد يكونُ هو الفيلمُ المعلومُ الذي سيُعْرَضُ بعد ساعتينِ في المسرحِ الصينيِّ. وفكَّر قليلاً، وتراجع دون صوتٍ، وأسرعَ إلى غرفةِ الأدواتِ فأشعلَ النورَ، وجالَ بعينيهِ

بين موجوداتِها فوقعَ بصرُه على هَراوةٍ بيسبولٍ ثقيلةٍ. الْتَقَطَها وعادَ إلى باب الخزانة واختبأ خلفَه.

وخــرجَ المحــافظُ يجــرٌ العــربةَ بظهــرِه إلى البــابِ. ونظرَ (ألفريد) حوالَيه، وخرجَ من خلفِ الباب وهَوَى بالهراوة على رأسِ الرجلِ فسقطَ مغشيًّا عليه! وسحبَه من قدميه إلى داخل الخزانةِ، وأطفأ النورَ وأخرجَ العربةَ وأقفلَ باب الخزانةِ. ودفعَ عربةَ القمامةِ في ممرٌ جانبيٌ، ثم عادَ فدفعَ عربةَ الفيلمِ بسرعةٍ نحو محرقِ الأستوديو الكبير.

وهناك أقـفلَ البـابَ خلفَـه، وضـغطَ على زرٌ الإشـعـال، فالتهبت ناره إلى أعلى درجةٍ في بضعِ ثوانٍ. وأخذَ البَكَرات واحدةً واحـدةً وقرأَ عنوانَ الفيلمِ ليتـأكـدَ، فـوجـدَ أنه فـعلاً النسخةَ الأصليةَ والوحيدةَ!

وسرتْ في بدنِه رجفةٌ قويةٌ وهو يُلْقِي بأولِ بَكَرةٍ في بئرِ النارِ المتأجِّجةِ ويسمعُ صوتَ انْسحاقِها، وانفجارِ الصندوقِ المعدنيٌ الذي كان يحتويها.

وَأَلْقَى ببقيـة أشرطةِ الفيلمِ إلى أَلْسِنة اللهبِ، وعـادَ إلى

الخزانةِ ففتحها، وأخذ عنقودَ المفاتيحِ من حزامِ المحافظِ، وعاد إلى حيثُ تركَ عربةَ الأفلامِ، فدفعَها حتى آخر الممرّ، وفتحَ البابَ المؤدّيَ إلى ساحةِ تسلُّمِ السِّلعِ، فتركَها هناكَ، وتركَ البابَ مفتوحًا، ثم عادَ فأخذَ عربةَ القمامةِ إلى مصعدِ الخدماتِ، وضغطَ على زرِّ الطابق الأعلى، وقلبُه يدقُّ بعنفٍ حتى خافَ أن يتوقفَ.

ولحُسْن حظِّه لم يستوقفْ المصعدَ أحدٌ.

وفتحَ غرفةَ التوظيبِ بمفاتيحِ المحافظِ، وجمعَ كلَّ الأشرطةِ المتبقيةِ من تركيبِ الفيلم المحروق، ووضعهَا داخلَ برميلِ القمامةِ، وتوجَّهَ نحو غرفةِ المحْرَقِ بالطابقِ نفسِه، فأفرغَ ما في البرميلِ داخلَ البئرِ العميقةِ وأنصتَ إلى زفيرِ اللهبِ وهو يلتهمُها...

وهدأتْ أعصابهُ واسترخى، وكأنهُ أفلتَ من موتٍ محققٍ!

وأخذَ يجمعُ براميلَ القمامةِ فوقَ عربتِه من كلِّ طابقٍ، وهو يغنّي ويصفّرُ سعيداً، ويفرغُها في جوفِ المحرقِ حتى أفرغَ أزبالَ اليومِ كلِّه فوقَ رماد الفيلمِ الملعونِ، وتأكدَ من أنهُ حتى

(الإيف .بي .أي) و(سي .آي . إي) لن يعثروا له على أثر!

* * *

وغَصَّ المصرحُ الصينيُّ بأعيانِ الصهاينةِ الذينَ ساهموا في تمويلِ مشروعِ الفيلمِ الضخمِ، والذينَ قَدِموا من « كندا » و« ميكسيكو »، ومن جميعِ أنحاءِ الولاياتِ المتحدةِ لِيَسْتَمْرِئُوا ثمرةَ تبرُّعاتِهم لقضيةِ أرضِ الميعادِ!

* * *

وحينَ وصلَ خبرُ اختفاءِ الفيلمِ جمدَ السفيرُ الإسرائيليُّ، وكادَ يُغمى عَلَى رئيسُ المؤسسةِ! وتكونتْ « أركانُ حربٍ » صغيرةٌ اجتمعتْ في مكتبِ إدارةِ المسرحِ. وقرروا الاتصالَ بالشرطةِ.

وطلبَ الرئيسُ سكرتيرتَه وأمْلى عليها الإعلانَ التالي :

« جائزةُ عشرةِ آلافِ دولارٍ لمن يأتي بنسخةِ فيلم « هَرَارِي » المسروقةِ من أستوديو الشركةِ، أو يدلُّ على مكانه . »

وطلبَ منها أن تعطِيَ الإعلانَ بالتلفونِ لجميعِ محطاتِ الراديو بالمدينةِ لتُذيعَه في الحالِ، وتُكَرِّرَهُ حتى يطلبوا منها التوقف .

وخـلالَ الضـجَّـةِ كـانَ « ألفـريد » يقفُ مع رجـالِ الأمنِ الداخليِّ والخارجيِّ الذينَ كانوا يعرفونَه جيداً يسأل باهتمامٍ ويعطي نظرياتِه ويبدي استعدادَه، كلّما مرَّ أمامه موظفٌ كبيرٌ، للمساعدةِ في العثورِ على الفيلمِ الضائعِ أو « الكنزِ المفقودِ » الذي ذهبَ فيه كثيرٌ من عَرَقِه ! »

وسَرَى الخبرُ بين المدعوين في المسرحِ حتى صارَ كِتْمانُه نكتةً سخيفة. واضطُرَّ رئيسُ الحفلِ إلى الإعلانِ عن ضياعِ الفيلمِ والاعتذارِ، وطلبَ من المدعوين الاحتفاظ بالتذاكرِ الغاليةِ والدعوات إلى حين العثورِ عليه.

وكانتِ الشرطةُ قد ضربتْ حصاراً على الأستوديو. وبعد أن تأكدَ لها اختفاءُ الشريطِ من المؤسسةِ، وبعدَ ارتفاعِ ضغطِ مئات العمالِ والممثلينَ والأيدي العاملة، فُكَّ الحصارُ عن المؤسسةِ واستأذنَ فريدٌ في الذهابِ إلى بيتِه.

وفي طريقِ عمارتِه رأى مخدعَ تلفونٍ على زاويةِ مُنْعَرَجٍ، فخطرتْ له فكرةٌ مجنونةٌ، فأوقفَ سيارتَه وسارعَ إلى تنفيذِها. رفعَ السماعةَ، وأدارَ الرقمَ الذي كانتْ تكرِّرُه

محطاتُ الإذاعةِ، ووضعَ منديلاً فوقَ فمِ السماعةِ وانتظرَ...
وجاءهُ صوتُ رئيسهِ الملهوفِ:

- نعم!

فقالَ فريدْ مقلداً لهجةَ السودِ التي يُتْقِنُها:

- الفيلمُ عندي...

- هاته حالاً! وستجد عشرةَ آلافِ دولارٍ تنتظركُ بدونِ «س» ولا «ج»!

- لا تُقاطعْني، أرجوكْ! أنا لا أريدُ شيئًا لنفسي. أريدكَ أن تكتبَ شيكًا بمبلغ مليونِ دولارٍ باسمِ صندوق الأطفالِ المعاقينَ التابعِ «لليونسيف»، وتبعثَه حالاً إلى رئيسِ المؤسسةِ. وحالما أراهُ على شاشةِ تلفزيون (5) يعرِضُ الشيك سأُسرِّح الشريطَ!

صاح الرئيسُ مستكثراً المبلغَ:

- مليون دولار!

فعقَّبَ «فريد» بدمٍ بارد:

- على أن يكونَ مصادقًا عليه من البنك!

وكانَ عميدُ الشرطةِ والسفيرُ الإسرائيليُّ ينصتانِ على سمّاعتين أُخْرَيَينِ فأشار عليه السفيرُ بأن يقبلَ بلا تردّد.

وقبلَ أن يقولَ «سنفعل» كان (فريد) قد أقفلَ الخطَّ وعاد إلى سيارتِه خشيةَ أن تطولَ المكالمةُ ويكتشفوا مصدرَها.

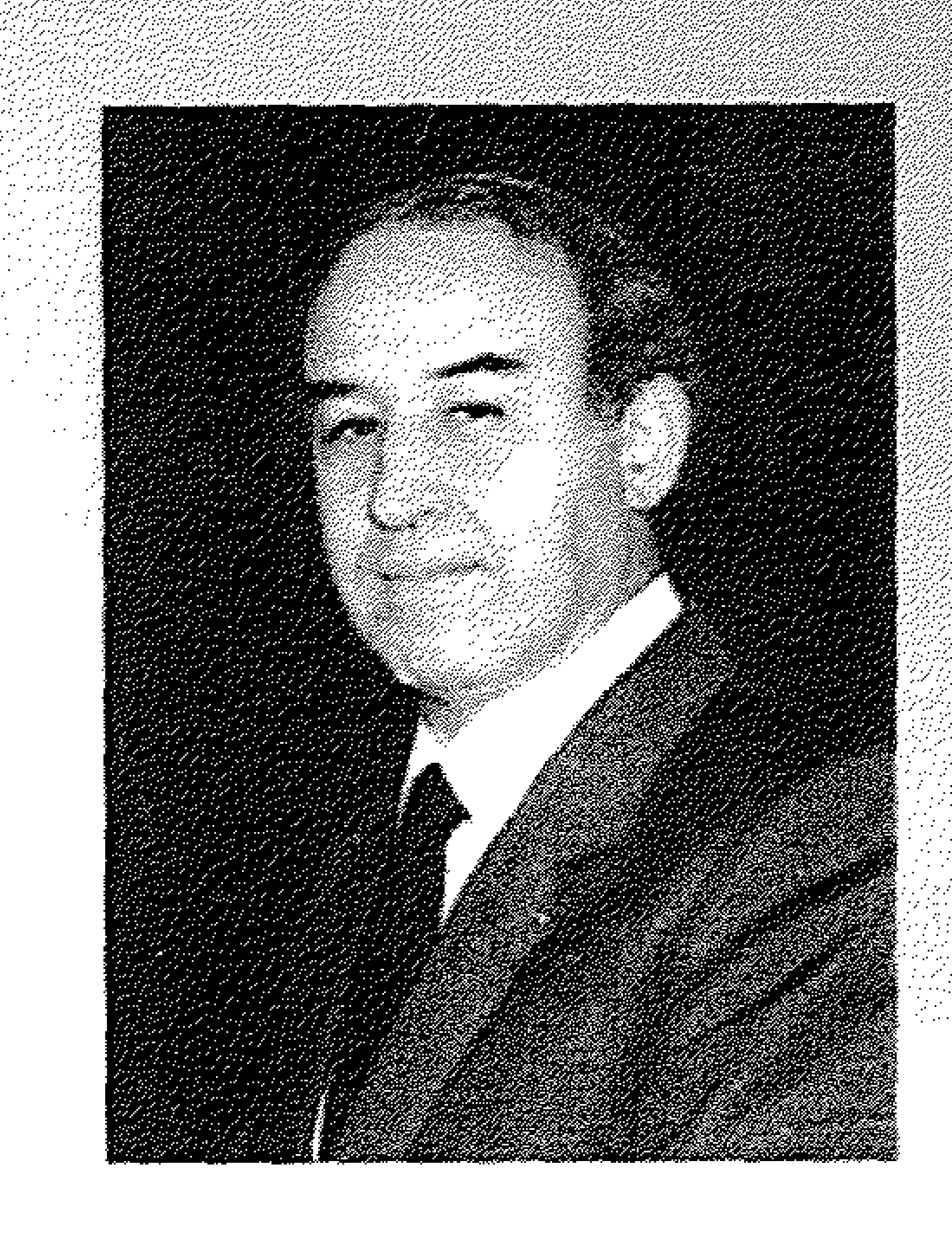
* * *

وفي شقتِه الصغيرةِ، صنعَ لنفسهِ شطيرةَ جُبْنٍ ولحمٍ وصبّ كأسَ حليبٍ باردٍ وقَعد أمامَ جهازِ التليفزيونِ يشاهدُ برنامجَه المفضلَ على قناةِ (5). راضيًا عن نفسِه، وعن عملِ يومِه الكبير!

كان يشعرُ بما يشعرُ به الفدائيُّ حينَ يعودُ من مهمةٍ ناجحةٍ في آخر الليل! وانزاحَ عن ضميرِه ذلك الخِزْيُ الأسودُ الذي كانَ يعذبُه كلما تقارعَ الصهاينةُ الكؤوسَ على هزيمةٍ عربيةٍ، وكلّما قَهْقَهُوا لنكتةٍ تفوحُ منها روائحُ اللاساميَّةِ ضدَّ بني قومِه، وكلّما رأى فيلمًا يصوّرُ العربَ في أبشعِ مظهرٍ، وكلما وضعَ دولارًا في صندوقِ مساعدةِ «إسرائيل» وأنفه راغِمٌ حتى لا تنكشفَ هويتُه!

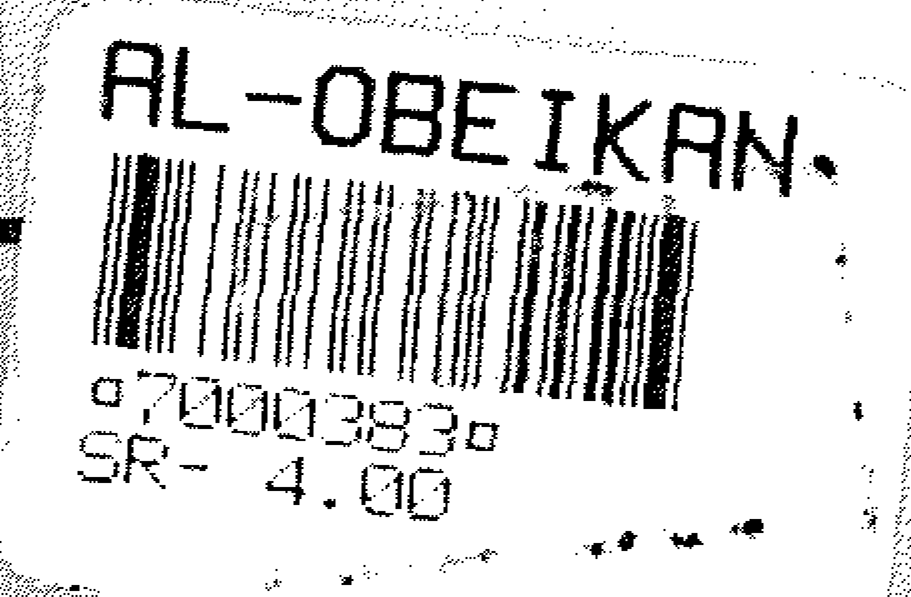
ولـم يكـنْ يتـصـورُ أنْ يأخـذَ رئيـسُ المؤسـسـةِ كـلامَـه مأخـذَ الجدِّ، حتى توقفَ البرنامجُ وظهرَ وجهُ رئيسِ صندوقِ الأطفالِ المعـاقين التـابعِ «لليـونيـسيف» يعـرضُ على المشـاهدين شـيكًا بمليـون دولارٍ وهو يبـتـسـمُ، ويشكـرُ المتـبـرِّعَ المجـهـولَ نيـابةً عن الصغارِ المحرومين...

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبد السلام البقالي، الحاصل على جائزة «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر. يقرب [illegible] الماضي البعيد، ويلقي الأضواء على عوا[illegible] بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحا[illegible] فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية [illegible] الحديثة للشباب في العالم العربي.




٩٩٦٠ - ٤٠ - ٠٤ - ٢
7000383

